

لونجفلو

الشاعر الأميركي المهرم

بقلم مأمون إياسى

صندوق إحدى الجرائد ، ولكن رئيس تحرير تلك الجريدة لم يوافق على رأيه فكان نصيبها سلة المهملات . فإكان من الشاعر الصغير ، وقد جرحت كبرياؤه ، إلا أن أرسل القصيدة إلى جريدة منافسة فنشرتها . وقد قال بعد سنتين عديدة بأن الشعور الذي استولى عليه عندما رأى أول شعره مطبوعاً لم يماوده بعد ذلك لدى نشر أى شعر آخر

وكانت حياته الدراسية بعد ذلك نجاحاً مضطرباً وتفوقاً يثير الإعجاب . وعند ما أتم علومه في جامعة « بودوان » راح يلتبس من والده لإرساله لقضاء سنة في جامعة « هارفارد » واعترف له بما يحول بخاطره من آمال قائلاً : « الحقيقة يا والدي هي أنني أطمع في مستقبل أدبي حافل . إن نفسي لتتحرق شوقاً إلى ذلك » ولكن والده نصحه بأن يفكر في صنعة تكفل له عيشه غير صنعة الأدب . وأرغم الشاب على النزول على إرادة والده والعمل بنصيحته ، فدخل كلية الحقوق . ولكن أحد المفتشين سمعه مرة يلتقي ترجمة لمقطوعة من أصعب أشعار « هوراس » فأعجب به ، وعندما كانت الإدارة تفكر في إدخال فرع جديد للغات الحديثة في برنامج الجامعة وقع اختيار ولاية الأمر على « لونجفلو » ليكون أستاذاً لذلك الفرع ، ولما يتخط عامه التاسع عشر ، ولكنهم اشتراطوا عليه أن يمضي ثلاث سنوات في أوروبا فيدرس لغاتها ثم يعود . ووافق والده على تزويده بالمال الكافي للقيام برحلته ، وأبحر الأستاذ الشاب إلى أوروبا بقلب مغمم حياة وأمل ، فمضى ثلاث سنوات متنقلاً بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وإنجلترا ، فدرس لغاتها وأحوال أهلها وطرق تفكيرهم ، ثم عاد ليقوم بأعباء منصبه بنشاط وحماس ، ويتقاضى تسعة دولارات كل شهر (وهذا المبلغ كان يمد ثروة في ذلك الحين)

لم يكن تدريسه في جامعة « بودوان » وإدارة مكتبها ليعوق « لونجفلو » عن الكتابة شعراً وتراً ، فواصل جهوده في النظم والتأليف ، ولكن كتاباته اقتصرت إلى حد ما على الموضوعات التي كان يدرمها

وثبت اسم الشاعر في عالم الشهرة حتى أن إدارة جامعة « هارفارد » طلبت إليه أن يتولى رئاسة فرعها للغات الحديثة عندما استقال أستاذها . فقرر « لونجفلو » القيام برحلة ثانية إلى أوروبا لاستزادة في درس اللغات والآداب . وعندما كان في هولندا

لاشك أن « هنري وودسورتو لونجفلو » الشاعر الأميركي النابه غنى عن التعريف إلى قراء الانجليزية ، وأن قصته الشعرية « ايضاحين » تعد في طبعة الآثار الأدبية الخالدة التي خلفها ، وخدمة لمن لم يقرأوا هذا الشاعر المبقرى رأينا أن نكتب هذه النبذة عنه فنقدم لهم بذلك أحد الشعراء العالمين الذين يقدمهم الشعب الأميركي

ولد « لونجفلو » في ٢٧ فبراير في سنة ١٨٠٧ في مدينة « بورتلاند » في ولاية « مين » وقضى طفولته وصباه في بيت واقع في شارع « الكونجرس » مازال إلى الآن محفوظاً على حاله الأولى عند ما كان يعيش فيه الشاعر العظيم . وبحج إلى ذلك البيت آلاف من الناس الذين يذهبون إلى « بورتلاند » في كل صيف ، ويدخلون إليه للتفرج على كل غرفة من غرفه ، وعلى مطبخه الذي مازالت الأواني الثقيلة مبعثرة على موائده منذ مائة عام . ونيف . ثم يصعدون إلى غرفة في الدور الثالث ليروا السرير الخشبي الذي كان يتام عليه « لونجفلو » ويطلوا من النافذة التي كان يرى منها المنارة الموصوفين في إحدى قصائده

وكانت « بورتلاند » مدينة موافقة لفتى له روح « لونجفلو » الحساسة الرقيقة ، إذ كانت شوارعها الطويلة المظلة بالأشجار الوارفة ، وأحراجها المكتظة ، وشاطئها الشمرى الهادى ميداناً خصباً لخيااله الواسع .

كان « لونجفلو » في السادسة من عمره عندما عاد من المدرسة يوماً وبأول والده شهادة — لم تزل محفوظة للآن — كتبت فيها معلته بأنه تلميذ مجتهد وأخلاقه قویة . وبعد ذلك بسبعة أعوام عندما كان في الثالثة عشرة من عمره كتب قصيدة يصف فيها إحدى المواقع المشهورة بين الأميركيين والهنود الحمر . وكان على ثقة تامة بأنها جديرة بالنشر ، فاستجمع شجاعته ورمها في

وصله من امرأته فواصل أبحانه ودروسه بقلب مثقل بالهم والحزن وهناك نادرة تحكي عنه عند ما عاد من أوروبا ليتولى عمله في «هارفارد»، وكان في الثلاثين من عمره، ولكن هيئته لم تكن لتدل على ذلك، فذهب الى «بنسيون» ليستأجر غرفة فيه، فنظرت اليه صاحبة «البنسيون» من رأسه الى قدمه وقالت له: «أنا لا أقبل تلامذة عندي» ولكنه قال لها «لست تلميذاً». أنا الأستاذ «لونجفلو». فما كان من السيدة إلا أن قالت له وهي تفتح الباب على مصراعيه: «إذا كنت مؤلف «وراء البحار» فتفضل على الرحب والسعة» — «وراء البحار» هو الكتاب الذي وضعه أثر رحلته الأولى الى أوروبا، ووصف فيه تلك السلسلة من الأسفار في بلدانها — وقادته السيدة الى غرفة في الزاوية الشرقية في منزلها قائلة «كانت هذه غرفة الجنرال ومجنطون ويمكنك أن تنزل فيها». وبقيت تلك الغرفة مسكنه طوال السبع عشرة سنة التي قضاها في «هارفارد»

وفي سنة ١٨٤٢ قام برحلته الثالثة الى القارة الأوربية. وبعد ذلك بسنة تزوج مرة ثانية وقضى ثمانى عشرة سنة في هدوء بين أطفاله وعائلته وأصحابه والقصائد التي كان ينظمها ترى

دعى الكاتب الأمريكي المعروف «ناتانيال هوثورن» مرة الى الغداء على مأدبة «لونجفلو» مع صديق للأول. ودار الحديث على الغداء حول قصة جرت وقائعها بين «نوفاسكوتيا» — وهي شبه جزيرة ملحقة بكندا — والولايات الأمريكية الشرقية. فقال صديق «هوثورن» مخاطباً «لونجفلو» «أنا أجرب أن أفتح «هوثورن» بكتابة قصة عن الحادثة، ولكنه لا يرى فيها فكرة لقصة» فسأله «لونجفلو» أن يسرد على مسامحه تلك الحادثة عله يجد فيها المواد لقصيدة أو أنشودة

ولخص له الصديق الحادث بقوله: «كانت مقاطعة «نوفاسكوتيا» التي كان يسميها الفرنسيون «أكادي» تنتقل من أيدي الفرنسيين الى الانجليز ثم يترجمها الفرنسيون، وهكذا الى سنة ١٧١٣، إذ انتقلت الى الانجليز بموجب معاهدة «أوترخت»، وهي باقية تحت سلطتهم الى يومنا هذا. وكان يغلب على سكانها الدم الفرنسي. فنشأت عداوة بين المنصرين الانجليز والفرنسي، أدت الى منازعات ومناوشات دائمة.

وتفاقت الحال في شبه الجزيرة حتى أصبح من الصعب جداً على الحكومة تهديتها، فاستنطت حيلة لم تحمد أنفع منها في تلك الأحوال، وهي نقل «الأكاديين» الى جهات أخرى من أمريكا الشمالية حيث لا يتيسر لهم الأجتماع بالسكان الانجليز. وكانت الطريقة التي نقل بواسطتها أولئك الساكنين غاية في النظفة والفظاظة. طلب الحاكم الى جميع الرجال والفتيان الذين تزيد سنهم على العشر سنوات أن يجتمعوا في الكنيسة، لأنه سيذبح عليهم أوامر هامة من السلطة. واجتمع الرجال والفتيان، وهم يتساءلون عما أوجب حشدهم بتلك الطريقة، وما أن دخلوا الكنيسة حتى حاصرهم الجنود من الخارج، وألقى الكاهن على مسامعهم الأمر الرهيب بصوت ملاء حنوا ورأفة. وفي مدة قصيرة كانت السفن حاضرة على الشواطىء، فحشد فيها السكان بطريقة عسكرية قاسية كان من نتائجها أن تفرقت أسر كثيرة، وأضاع أفرادها بعضهم بمقاً وكان بين الذين نقلوا الى الولايات الشرقية فتى وصبية كان الكاهن قد عقد قرانهما في ذلك الصباح فقط. فأضاع أحدهما الآخر، وبقيت «ايفانجيلين» تجوب السهول والقفار وتقطع الأنهار، وتنام الليالي على الطوى كل حياتها باحثة عن «جابريل» الى أن انخرطت في سلك الممرضات، بعد أن قطعت الأمل من وجوده، ولذا بها يوماً تلتقي به بين الرضى، ففرفته برغم التغير العظيم الذي طرأ عليه. وكانت صدمة عنيفة أودت بحياته لضبعفه، وأودت بحياتها هي لسرورها وخزنها المتعاقبين

وما انتهى الصديق من سرد قصته حتى التفت «لونجفلو» الى «هوثورن» قائلاً: «أُسندنى يالاً تكتب شيئاً عن هذه الحادثة حتى انتهى من نظم قصيدتى؟» ووعد «هوثورن» وبدأ «لونجفلو» في نظم القصيدة التي خلد فيها بطل ذلك الحادث، — نخلة بدورها، وجعلت «ايفانجيلين» اسمه بطبع بحروف كبيرة على صفحات الجرائد، وتتوارد عليه رسائل الإعجاب ترى

ومن الغريب أن «لونجفلو» لم يرقط مشاهد قصيدته، مع أن الوصف فيها كان مطابقاً للحقيقة كما شهد الذين سكنوا تلك الأمكنة وقد اقتبست من قصة «ايفانجيلين» رواية سينائية أخرجت في عهد السينما الصامتة، وقامت بالدور الأول فيها الممثلة الكيكية الفاتنة «دولوريس داريو»